

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لآيَاتٍ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

« صدق الله العظيم »

[ النحل : الآية ٧٦ ]

جرينا على أن نقول إن الإسلام قاعدة حضارة ، وإن حضارة الإسلام هي التي قامت على أساس من الإسلام .

ولكننا في هذه الدراسة نقول : إن الإسلام نفسه حضارة ، عقيدته حضارة وشريعته حضارة ، والشريعة تتضمن العبادات ، وقد رأينا الجوانب الحضارية من كل منها ، وتتضمن المعاملات ، وهي القانون الإسلامي الذي يتضمنه القرآن كلام الله وسنة نبيه ، وهي التطبيق والتفصيل ومكارم أخلاقه أو المروءة الإسلامية ، وكل هذه حضارة ، وأنت عندما تقول لا إله إلا الله . . محمد رسول الله ، فأنت بهاتين الشهادتين تدخل عالم حضارة الإسلام الرحبية

هنا أنت في جماعة العلم والعمل والإيمان والتعاون على الخير ، أنت في أمة

أمان الله وضمانه ، وهو جل وعلا يشملك بهديه وحنانه ، ويسير بك في الطريق القويم وصراطه المستقيم ، وهو طريق إيمان وعمل وفكر ، يصل بك إذا أنت سرت فيه عن فهم ويقين إلى أحسن مما ترجو وأرفع مما يبهرك من المكتشفات والمخترعات ، لأن الذين وصلوا إليها لم يتسلحوا بأكثر من قوة الفكر وعزيمة العمل ، والعلم أساساً هو التفكير السليم الحر الذى يتدرج بصاحبه في مدارج الكشف عن حقائق الكون خطوة خطوة ، وهذا الكلام قاله رجل من أعلام حضارة الدنيا هو الشيخ الرئيس أبو على بن سينا صاحب الفكر الصافي ، وقد كان ابن سينا معجباً بأفلاطون وطريقته القصصية الجميلة في سياقه كلام سقراط في دفاعه عن نفسه عندما اتهمه الأثينيون بإفساد أفكار الشباب وقدموه للمحاكمة ، وكان يعجبه في كلام سقراط إيمانه بخلود الروح ، وهو كلام ساقه أفلاطون في محاوره «الفايدون» المشهورة ، فنظر فيها ابن سينا وقال : كل هذا عندنا في القرآن الكريم ، وسبحانه من جمع لنا الخير كله والحق كله والجمال كله في آياته البينات ، وما أكثر ما يغيب عن المسلمين من فضائل دينهم العظيم .

ومن أكبر أسباب غيبة الذهن هذه هو النقل والاكتفاء بما قال السابقون ، مع أن القرآن مرسل لنا جميعاً ، وكل منا مطالب بأن يقرأه قراءة تفكير وتدبر ، لينجلي له من أسرار الكتاب العظيم ما غاب عن الآخرين ، ومثال ذلك أننا جميعاً نقول : إن معنى العدل هو أنه ضد الظلم ، مع أن للعدل في الإسلام معانٍ أخرى واسعة المدى ، إذا نحن جمعناها تبيننا أن العدل في الحقيقة هو الميزان الخلقى للمسلمين ، وانظر إلى الآيات التى توجنا بها هذا الحديث ، وسل نفسك ماذا أراد الله سبحانه بالعدل في هذه الآية البينة ؟

إن المراد هنا ليس عدل القضاء ، فلا قضية هنا ولا حكم ، وإنما هو سؤال يوجهه الحق سبحانه إلى عقولنا عن رجلين أحدهما عاجز لا يستطيع شيئاً ، والآخر ذكى عامل يأمر بالعدل ، وهو مؤمن يسير على صراط الإيثار ،

ومادامت هنا مقارنة بين الرجلين فلا بد أن يكون الثاني منها خلاف الأول ،  
ولابد إذن أن يكون الرجل الثاني رجلاً سوياً قادراً على إنجاز الأمور يسير في  
حياته في الطريق السليم الذي يرضاه الله ، وهذا هو الرجل العدل كما سنرى في  
آيات أخرى قادمة ، ولابد أن نذكر هنا أننا هنا في سورة النحل ، وهى سورة  
بديعة فيها أسئلة وأجوبة ومنطق وأخذ ورد وإيقاظ للأذهان إلى حقيقة الإيمان ،  
فهنا في هذه السورة يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي  
جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾  
( الآية ٧٩ ) فمثل هذه الآية لابد أن يقرأها الإنسان بذهن مفتوح وقلب واع  
مدرك ، لأننا نرى الطير سابحة في السماء دون أن نسأل : ما يمسكها في جو  
السماء ؟ والجواب هو أنها مسخّرات بإرادة الله ، فالطير لا يفكر ولا يعقل ،  
وإنما هو يعيش بالقوى التى منحه الله إياها ، يفكر ولا يعقل ، وإنما هو يعيش  
بالقوى التى منحه الله إياها ، فهو سخر لما خلق له ، شأنه في ذلك شأن الحيوان  
والسمك والحشرات وكل ما خلق الله ، عدا الإنسان الذى وهبه الله العقل  
ليستخدمه في شئون حياته وأولها الإيمان بالله ، لأن الإيمان كما قلنا يحتاج إلى ذكاء  
، بل هو في ذاته دليل ذكاء ولهذا يقول الله جل جلاله في ختام الآية : ﴿ إِنْ فِي  
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وماداموا مؤمنين عن عقل وفكر واقتناع فهم أهل  
فهم وإدراك ، ولهذا فإن الله يخاطب عقول المؤمنين المدركين بعد ذلك بقوله :  
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا  
تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا  
إِنثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿ وبناء البيوت ابتكار إنسانى لم يصل إليه البشر إلا بعد  
مئات الألوف من السنين في الظلال والضياع في البرارى والغابات ، فبنى  
الإنسان البيوت من الحجر أو الخشب أو الأجر أو اللبن بذكائه الذى يسر له  
الاهتداء إلى ذلك ، وهنا وجه مقارنة بين الطائر المسخر بأمر الله ، فهو يطير بقوة

من عند الله ، والله سبحانه يمسكه في جو السماء ، بينما لم يصل الإنسان إلى الطيران إلا من حوالى مائة سنة مع أنه يحاول ذلك من أيام الإغريق ، لأنه لا يصل إلى شيء إلا بعقله ، ولهذا يشير الله بعد ذلك إلى اهتداء الإنسان إلى عمل الحيام ، وهى البيوت الخفاف التى يستعملها الإنسان فى سفره ، والله سبحانه أعطانا الأصواف والأوبار والأشعار ، فصنعنا منها الثياب والأثاث والحيام . فالرجل العدل المذكور فى الآية : هو الرجل السوى العاقل الذى يعتمد على ذكائه فى حياته وحل مشاكله والوصول إلى الصراط المستقيم ، وهو طريق الإيمان بالله ، الذى هو رأس كل فضيلة ، ولهذا يقول الحق سبحانه فى الآية التسعين من نفس سورة النحل :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل ١٦ / ٩٠) .

وهى آية نقرؤها ونسمعها كل يوم دون أن نفكر فى المراد بالعدل فيها ، وواضح أن المراد هنا ليس العدل فى الأحكام فحسب ، فلسنا كلنا قضاة أو حكاما ، ولكننا كلنا مطالبون بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، فالعدل هنا هو الحظ الأخلاقى السلوكى السليم المطلوب من كل مسلم ، مثله فى ذلك مثل الإحسان ، وهو التصرف الحسن والاعتدال فى كل شيء يفعله الإنسان ، ومن أهم ذلك إيتاء ذى القربى أى رعاية المستحق للرعاية منهم ، ولو رعى كل منا ذوى قريبه لاعتدل ميزان المجتمع ، لأن هذا المجتمع مكون من أسر ، والأسرة - كما سنرى فى فصل قادم - هى أساس المجتمع ، وسلامتها أساس سلامته ، وليس معنى إيتاء ذى القربى رعايتهم بالمال فحسب ، فليس كل منا غنياً قادراً على تقديم العون المادى ، ولكن هناك العون العاطفى والعقلى ، ومراعاة الأسرة بضرب المثل الصالح لأفرادها ، ورسول الله ﷺ مع نبوته ورسالته كان دائم الإحساس بهاشميته ، يمتدح المحسنين من آل بيته ويضرب لهم المثل الصالح فى

كل موقف . وبعد أن يأمرنا الله بهذه الثلاثة : العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ينهانا عن ثلاثة أشياء تضر بالمجتمع وتفسده : الفحشاء وهى - كالفاحشة - مؤنث الفاحش وهو القبيح الشنيع من قول أو فعل ، والمنكر هو كل ما ينكره المجتمع من الأقوال والأفعال ، والبغى وهو الظلم والعدوان والتعدى . وهذه أمور ثلاثة نفشت في مجتمعنا اليوم ، وجعلت حياتنا عسيرة كل العسر ، وكل ما ترى من الشطط في رفع الأسعار والمتاجرة بأقوات الناس واستغلال حاجتهم إلى المساكن بغى ، ومغالة الأطباء في أتعابهم بغى . وليس أحسن من العدل في التصرف ، فيعمل به الإنسان السليم المستقيم الذى يرضاه الله سبحانه والناس . ولو تعاملنا بعضنا مع بعض على أساس العدل لكنا فى الحال التى نتمناها لأنفسنا وأوطاننا .

وفى سورة المائدة نقرأ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴾ [١٠٦/٥].

فالإشارة هنا إلى الرجال العدول الذين يوثق فى أمانتهم وحلقهم وسريرتهم للشهادة على الوصية ، وهذه الآية هى أصل نظام العدول الذى أصبح مع الزمن جزءاً من تنظيم القضاء فى معظم البلاد الإسلامية . فالناس فى الماضى كان يعرف بعضهم بعضاً ، فكان القاضى يختار - أو يختارون له - رجلاً من أهل الأمانة والصدق للاستعانة بهم فى التحقق مما يدعيه الناس بعضهم على بعض ، وقد كتب الدكتور محمد محمد الأمين الأستاذ بجامعة القاهرة دراسة عظيمة

القيمة عن الشاهد العدل في القضاء الإسلامي ، بين فيها تطور نظام الشهود العدول واهتمام القضاة به في بلاد الإسلام ومصر الإسلامية خاصة ، وفي بلاد الأندلس كان العدول أساساً من أسس التنظيم المدني ، وفي المغرب الذي أخذ الكثير من تنظيمات المدن الأندلسية نجد أن العدول في كل بلد وقرية أصبحوا من أعمدة المجتمع ، وهم ملأ الناس أي الشخصيات التي تملأ العين والقلب مهابة وشهادتهم في المناسبات الاجتماعية كالزواج والصلح بين الناس قاطعة ، ولا يستغنى عن آرائهم القضاة في نظر القضايا ، وأخلاقهم وثقة الناس فيهم هي التي كانت ترفع أقدارهم إلى مراتب العدول ، والواحد منهم - الرجل العدل - يرضى الناس رأيه وشهادته في كل مجال .

هنا نجد للعدل في المجتمع الإسلامي معنى آخر غير ما يقابل الظلم ، فالعدل مقياس خلقى ، هو ميزان الناس في المجتمع ، هو جماع لكلمات الأفراد .

وعندما نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . وَتَمَّتْ كَلِمَةَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . [ الأنعام / ٦ - ١١٤ - ١١٥ ] .

نجد للعدل معنى آخر ، فالكلام في هاتين الآيتين عن صدق القرآن الكريم ، والآية ١١٥ تقول إن كلمة الله تمت صدقاً وعدلاً ، فالمراد بالعدل هنا توضحه بقية الآية : لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم . فنفهم من هذه الجملة أن المراد بالعدل هنا هو الدقة والإحكام والضبط ، وكلمات ربك تم إبلاغها للناس بغاية الصدق والضبط والدقة ولا مبدل لكلمات الله من بعد ،

وذلك كله بفضل صدق الرسول وأمانته وضبطه ، وإذا كان رسول الله ﷺ قدوتنا ومثالنا فتكون الدقة والضبط من أخلاقيات الإسلام ، ومن السنن الأساسية التي ينبغى أن نأخذها عن الرسول .

وهذا المعنى للفظ العدل نجده مرة أخرى في قول الحق سبحانه في آية الدين في سورة البقرة ، وهي من آيات الضبط والدقة والإحكام ، لأن الأمر هنا يتعلق بالأموال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ﴾ . [ البقرة ٢ / ٢٨٢ ] .

فالكاتب الذي يكتب وثيقة الدين هنا مجرد كاتب ، والكاتب ليس قاضياً ولا حكماً ولا طرفاً في النزاع ، وإنما هو كاتب ما يملى عليه بغاية الدقة ، ولهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ فنحن لا نتطلب في الكاتب معرفة قانونية ، وإنما الدقة والأمانة في تسجيل ما يملى عليه ، وهنا يتضح تماماً أن المراد بالعدل هنا الأمانة والدقة والضبط ، وهي خصال إسلامية ينص عليها القرآن الكريم ، وكان رسول الله ﷺ آية في الأمانة والدقة والإحكام ، وكان يمتدح الدقة في العمل والضبط في الأداء ، وعندما أعيد عمل الصفة في مؤخرة المسجد بعد تعديل القبلة قال : « لم يكن يعجبني ما صنعتموه آنفاً فانظروا في رجل من أصحاب الأعداء يقيم لكم ما تريدون » ، وأشار عليهم بمولى لإحدى الصحابيات كان نجاراً ماهراً ، وهو الذي صنع أول منبر خطب عليه رسول الله ﷺ في المسجد ، وسمع بزجل وفد من اليمن إلى المدينة يحسن غرس النخل ، فذهب ليرى كيف يعمل هذا الرجل ، وأعجبته دقته وإحكامه ، حفر الموضع الذي ستغرس فيه

الفسيلة ورآه يتنخل التراب قبل أن يضعه ، ورآه بعد أن غرس الفسيلة ورواها ترك قدر ربع ذراع من بثر النخلة ، فسأل الرجل في ذلك ، فقال إنه سيملا البشر عندما تبرز النبتة من باطن الأرض ، وعنده لذلك تربة مرة تحمى النبتة من الهوام فابتسم وهو يتأمل الرجل يعمل ، وقال : « هذه يد مجبها الله » ، بهذا كله نقول إن الدقة في العمل وإحكامه سنة ، وكان رسول الله متحريراً للدقة التامة في كل ما يعمل ، فالدقة والضبط جزء من أخلاقيات الإسلام ، ومن بديع أحاديثه قوله : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طائر أو سبع إلا كان له صدقة » .

ومن محكم كلام الله قوله في سورة الانفطار :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [ ٨٢ / ٦ - ٨ ] .

وهذه الآيات تأتي في سورة الانفطار وبعد قيام الساعة وتنفطر السماء وانتشار الكواكب وتفجر البحار وطغيان مياهها على اليابس وتفتح القبور وخروج الناس للحساب بين يدي الرحمن ؛ هنا تعلم نفس الإنسان أثناء الحساب ما قدمت وما أخرت من الأعمال الصالحة وغير الصالحة ، وهنا يكون عتب الخالق سبحانه على الإنسان الذي أحسن خلقه فسواه وعدله في الصورة التي اختار أن يركبه فيها ، وهي صورة سوية معتدلة ، والوصف هنا لا يقتصر على الجسد ، بل على النفس ، فإن الله سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وأراد منه أن يسير في الطريق المستقيم على أحسن هدى وأقومه ، ولكن الإنسان عصا ربه وخالف أمره ، وأزله الشيطان فقارف ما نهاه الله عنه ، فردة الله سبحانه وتعالى إلى أسفل سافلين أى إلى الأرض ، وتحول كما قلنا من مخلوق فردوسى رفيع إلى حيوان أرضى وفي الفتوحات المكية يقول أمير الصوفية محيي الدين بن عربي : « إن آدم وحواء

عندما أهبطا إلى الأرض حفظ الله عليهما صورتها الفردوسية السوية ، ولكن المعاصى هي التى أدخلت القبح فى هيئات الناس ظاهراً وباطناً ، فالخطايا هي التى غيرت أشكال الناس فظهر الاعوجاج النفسى والخلقى ، ورأينا من أشكال القبح الخلقى ما نرى .

ومن بين شيوخ ابن عربى كانت امرأة سالحة تسمى نونا فاطمة أى السيدة فاطمة ، نبئت على الثمانين ووجها أجمل من البدر ، لأن باطنها كان زكياً قوياً ، فظهر ذلك فى خلقتها ، فهى مع شبيها حلوة لا تشبع العين من النظر إليها ، وقد أعاد ابن عربى ذكرها والكلام عليها فى رسالة القدس ، وهى من أجمل ما كتب وأبعده عن الشطحات التى لا يحبها بعض الناس .

وقد استعمل الحق سبحانه لفظ العدل فى سياق الكلام عن الزواج وتعدد الزوجات ، لأن الإسلام دخل على العرب ومجتمعهم وبقية المجتمعات الأخرى المعاصرة لعصر النبوة ، كانت لا تضع أى ضوابط للزواج ، فالتناس كاسوا يتزوجون وينجبون ويطلقون دون ضابط لعدد الزوجات وأسلوب معاملتهم ، إلا الأسرة ، فالمرأة المنحدرة من بيت قوى تحترم وتسان كما نرى فى حالة هند بنت عتبة بن ربيعة وزوج أبى سفيان صخر بن حرب التى فعلت بحمزة الشهيد ما فعلت يوم أحد ، فقد كانت امرأة محترمة تضرب أبا سفيان بقدمها فى صدره ولا يستطيع أن يفعل معها شيئاً ، أما المرأة من البيت الوسط أو الفقير فلم يكن لها من الأمر شىء ، تطلق وتعاد إلى أهلها دون أن يهتم بأمرها أحد ، وإذا مات عنها زوجها استولى أخو زوجها على تركته كلها ، وله الحق فى أن يتزوجها إذا شاء وفى المسيحية كانت المجامع الدينية قد قررت الزوجة الواحدة ، وجعلت الطلاق بيد الكنيسة والقسس ، ولكن المسيحيين كانوا يتزوجون ما شاءوا من النساء دون حرج ويطلقون النساء دون أن يسألهم أحد ، لأن قرارات المجامع المسكونية (العالمية) لم تكن ملزمة لأحد ، لأن العالم المسيحى ضم أكثر من

كنيسة ، والكنائس فيما بينها متعادية ، حتى القساوسة ورجال الكنيسة كان لهم النساء الكثيرات ، بل إن بعض الأساقفة كان لهم العشرات من النساء والجوارى ، فجاء الإسلام ليدخل النظام على هذه الفوضى ، فحدد عدد من يباح للرجل أن يتزوجهن بأربع في وقت واحد ، ووضع لذلك من الضوابط ما يجعل الزوجة الواحدة هي الأمل ، ومثل هذا الشأن الإنسانى العاطفى من شئون الناس لا تضبطه حق الضبط القانونين بل النفوس ، فالرجل قد يتزوج المرأة على رغمها ويعضلها ويذلها ويكسر نفسها بالإهمال وسوء المعاملة ، وهنا يستعمل الله سبحانه ميزان العدل وهو الخط السلوكى الأخلاقى القويم ، فالشريعة تحكم مسائل الزواج والطلاق ، ولكن قانون العدل هو الذى يحقق السعادة وهناءة الحياة الزوجية ، والعدل خط سلوكى نفسى لا يحس به إلا الإنسان وحده ، ولهذا فإن الله يقول مثلاً فى سورة النساء :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْبَيْتَامَى فَاذْكُرُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْوَلُوا . وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَىْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ . [ النساء ٤ / ٣ - ٤ ] .

فهنا لأن مسائل الزواج والطلاق مسائل قلوب تحكمها - إلى حد بعيد - العواطف والميول والأذواق ، يستعمل القرآن الكريم لفظ العدل ، ولأنه ميزان خلقى داخلى فإن الانسان فى مسائل بيته يعتمد على الأحاسيس قبل القانون والحقوق والواجبات . فهنا يدخل التوافق والنفور والحب والكراهية ، ومن ثم فالمسألة دقيقة ، ولهذا يقول سبحانه : فإن خفتهم ألا تعدلوا فواحدة . والعدل بين النساء - فى الزواج - مستحيل والله سبحانه وتعالى يقول فى نفس سورة النساء : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا

تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَكْذُرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تَصَلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ  
غَفُورًا رَحِيمًا ﴿ [النساء ٤ / ١٢٩] .

وسبب استحالة العدل بين النساء هنا هو الطبيعة الإنسانية نفسها ، فإن  
الزوجة - كل زوجة - تريد كل زوجها لنفسها وأولادها ، وهي لا ترضى أن يعطى  
شيئاً من نفسه لأى إنسان آخر ولو كانت أمه أو أخواته ، والمرأة بطبيعتها تعطى  
لنفسها ومحبتها كلها لرجل واحد ، وهي تريد من الرجل المثل ، وعلى كثرة ما  
سمعنا وعايينا لم نر ولم نسمع عن رجل تزوج اثنتين أو ثلاثاً وكان سعيداً مهما فعل  
لأن الزواج صلة إنسانية خاصة جداً بين الزوجين ، فيها حب وأنس وثقة إلى  
جانب مسائل الاستقلال بالمسكن والأولاد ، وهذه كلها مسائل لا يمكن أن  
تتقاسم بين رجل وامرأتين أو ثلاث نساء ، هذا إلى جانب الأولاد فى الزواج  
المتعدد ، فهم لا يكونون إخوة حقيقيين قط ، بل إنهم يشبون منذ البداية أعداء  
والرجل الذى يشط به عقله ويتزوج امرأة ثانية ويسكنها مع الأولى أو فى بيت  
آخر لا يلبث أن يعلم أنه فقد السعادة الزوجية وسكون البيت وراحته ، فإن  
الزوجة الأولى - حتى فى الحالات التى توافق فيها على زواج رجلها بامرأة أخرى -  
تفقد الثقة والأمان ومعها الحب ، وتتحول إلى عدو كبير الجناح يصمت لأنه  
يخاف أن يتكلم . ولكنه يتكلم فى صمت ، ويتحرك فى سكون ويبتسم وهو  
يبكى ، معظم مآسى البيوت الحاكمة فى تاريخنا آتية من تعدد النساء فى قصور  
الحكام ، ولكل امرأة أولاد ومخاوف ومطامع ولها كذلك أنصارها ، والقصور  
تتحول إلى ساحات قتال وتدمير ، وصاحب السلطان الذى يعيش فى قصر كأنه  
مدينة لا يجد غرفة واحدة يستطيع أن ينام فيها هادئ البال مطمئن النفس ،  
ولا يتصور أحد أن الخلاف بين الأمين والمأمون مثلاً نشأ عن أن السيدة زبيدة أم  
الأمين عربية والخيزران أم المأمون فارسية ، بل إنه نشأ من الزوجتين ، فإن السيدة  
زبيدة كانت امرأة عاقلة كريمة مؤمنة أنفقت من مالها الكثير جداً فى سبيل الخير

وهى وحدها ومن مالها قامت بتعمير طريق الحج من العراق إلى الحجاز ، ولكنها قبل كل شيء امرأة تريد كل زوجها لنفسها وأولادها ، وهذه هى طبيعة البشر لا طبيعة زبيدة وحدها ، وابنها الأمين لم يكن منذ البداية سيئاً ولا غيباً ولا ناقص العقل والخلق ، ولكن المأمون ابن الخيزران خلق له مشكلة تجاوزت طاقاته ، فهنا الخلافة والسلطان ومن خلف الأمين ناس لهم مصالح ومطامع ، وكذلك الأمر مع المأمون . ثم إن المأمون كان يكبر الأمين بستة شهور فحسب .  
فهنا صنوان في السن وعديلان في الحق ، ولم يكن من الممكن أن يكون بينهما هذا الفرق القليل في السن لو أنها كانا ولدى زوجة واحدة ، ففي هذه الحالة يكون واضحاً جداً ، ويكون صاحب الحق في ولاية العهد واضحاً جداً أيضاً ، والمأسة كلها ظهرت في أيام الرشيد أبيهما ، فهذا الرجل الشهم الذكى المثقف ثقافة واسعة كان عاطفياً رقيق القلب سريع الدمعة ، وكان في حاجة إلى زوجة واحدة تحبه وترعاه لأن صحته كانت ضعيفة فكان من أوائل الثلاثينات من عمره يشكو من متاعب في البطن والأمعاء ، ثم أصابه شيء في القلب ، وأذكر أنني قرأت في كتاب الأغاني - وربها في كتاب الكامل لأبي العباس المبرد - أنه جلس تحت شجرة ليستريح وهو في الطريق إلى طوس وكان متأخراً عن كتلة الجيش ومعه واحد من نداماه وأهل صفوته من رجال الفكر ، فشكاه همومه ومتاعبه وكشف عن بطنه ليرى ما به ، والرجل الذى حكى الحكاية يتعجب من أن هذا القسط الضئيل من السعادة والأمان يكون نصيب أكبر ملوك الدنيا في وقته ، وغاب عنه أن المأساة مأساة الزوجتين ! ولو كانت للرشيد امرأة واحدة لما اضطر إلى أن يشكو آلامه لهذا النديم تحت شجرة في الطريق إلى طوس ، لأن مكان هذه الشكوى يكون في البيت مع الزوجة المحبة ، ولكن هارون الرشيد لم يكن يجد السعادة في قصره ولا في بغداد كلها ، ولهذا كان لا يطمئن إلى العيش فيها ، وكان معظم الوقت خارجها ، وهذا هو تفسير ما نقوله من أنه كان يحج سنة ويغزو أخرى .

وهذه المأساة يعرفها كل من تزوج بأكثر من واحدة باستثناء حالات الضرورة كالعقم أو المرض الوبيل وما إلى ذلك . . والله سبحانه أباح التعدد ولكنه قيده بالعدل ، وهو الميزان الخلقى الداخلى الذى لا بد أن يستخدمه المسلم فى تقدير أعماله قبل القيام بها أو قبل الحكم على الأشياء .

والعدل ضد الهوى . ومعظم المصائب فى تصرفات الإنسان تأتى من الهوى ، ولهذا أعطانا الله سبحانه ميزان العدل ، وجعله علاجاً لأخطار الهوى ، وقرأ هنا قول البارئ سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلِوَالِدَيْهِمْ وَأَنْفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [ النساء ٤ / ١٣٥ ] .

فهنا يضع الله العدل أمام الهوى ليحمينا من شرور الهوى ، وهو آفة حياتنا وتاريخنا الكبرى ، وما دخل الهوى شيئاً إلا أفسده وضيع جماله ، وجعله نقمة بعد أن كان نعمة ، وفى الغرب ابتكر الناس نظم المحلفين ليأمنوا الهوى فى الأحكام ، أما فى الإسلام فقد منحنا الحق سبحانه العدل وهو الفيصل الذى يفرق بين الصواب والخطأ ، بين ماهو صالح وماهو ضار فى حياتنا الخاصة والعامه . وقد كان العدل مبدأ من مبادئ المعتزلة ولكنهم قصروه على عدل الله سبحانه ، وهو أمر لاشك فيه ، ولا مجال للمناقشة فيه ، وكان جديراً بهم أن يوجهوا أذهانهم إلى العدل الإنسانى الذى يحمى الإنسان من الهوى ، والمعتزلة أنفسهم لم يكونوا أهل عدل بل كانوا أهل هوى ، والهوى ضيعهم .

\*\*\*